الجبال

عناصر الموضوع

مفهوم الجبال	٣٣٨
الجبال في الاستعمال القرآني	٣٣٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٠
الجبال والأرض	٣٤٢
الجبال والإنسان	٣٤٩
الجبال والساعة	٣٥٤

مفهوم الجبال

أولًا: المعنى اللغوي:

«الجيم والباء واللّام أصلٌ يطّرد ويقاس، وهو تجمّع الشّيء في ارتفاعٍ؛ فالجبل معروفٌ، والجبل: الجماعة العظيمة الكثيرة، قال[1]:

أمّا قريشٌ فإن تلقّاهم أبدًا ... إلّا وهم خير من يحفى وينتعل

إلّا وهم جبل اللّه الّذي قصرت ... عنه الجبال فما ساوى به جبل»[2].

وعلى هذا فإن الجبل يعني في اللغة: المرتفع من الأرض ارتفاعًا ملحوظًا يجعله يعظم ويطول على ما حوله من الأرض، فإن انفرد فأكمةٌ أو قنّةٌ، ودونه في الارتفاع التل، ودون التل الربوة أو الرابية، أو النتوء الأرضي، أو الأكمة وجمعها آكام، ودون الأكمة النجد أو الهضبة، ودون الهضبة السهل، ودون السهل المنخفض من تضاريس الأرض.

والجمع: أجبلٌ كأفلسٍ، وجبالٌ بالكسر، وأجبالٌ، والثّاني في القرآن كثيرٌ[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الجبل» في الاصطلاح: هو كلّ وتدٍ للأرض، عظم وطال، وقيل: هو منطقة من الأرض ترتفع بشكل مفاجئ عما حولها.

و«السلاسل الجبلية» هي مجموعة كبيرة من الجبال تمتد لآلاف الكيلو مترات وتشكل ما يشبه الأحزمة، مثل سلسلة جبال الهملايا شمال الصين، وسلسلة جبال الألب في قلب أوربا.

وبالنظر إلى هذه التعريفات يتبين أن مصطلح الجبال حمّال لجميع مدلولاتها، وبالتالي فإن هذه الدراسة القرآنية ستركّز على بيان هذه المدلولات، واستخراج ما فيها من نتائج دعوية.

---

(١) البيتان من شواهد مقاييس اللغة، ولم يعلم لهما قائل. انظر: مقاييس اللغة ١/ ٥٠٢.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.

(٣) هذا البيت مما أنشده ابن الأعرابي ولم يعلم له قائل.

انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٧، الفصول والغايات، المعري ص ١٣٢.

الجبال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جبل) في القرآن (٤١) مرة، والذي يخص موضوع البحث منها (٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٦	﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[الأعراف:١٧١]
اسم جمع	٣٣	﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[الأعراف:٧٤]

وجاءت (الجبال) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو تجمّع الشيء في ارتفاع، فالجبل معروف[٢]، وهو: ما علا من سطح الأرض واستطال وجاوز التل ارتفاعًا[٣].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، يعني: ولن تساوي الجبال طولًا بفخرك وكبرك[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٦٣- ١٦٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأوتاد:

الأوتاد لغةً:

ما نزل في الأرض، وأوتاد الأرض الجبال، وأوتاد البلاد رؤساؤها[١].

الأوتاد اصطلاحًا:

ما يثبّت به الجبل في الأرض.

الصلة بين الأوتاد والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للأوتاد تبين أن الجبال أعم وأشمل منه؛ إذ إن الأوتاد يعني ما يثبّت به الجبل، والجبل يشمله، ويشمل ما فوقه من مرتفع.

٢ العلم:

العلم لغةً:

اسم يطلق على العلامة، والأثر، والجبل، والراية[٢].

العلم اصطلاحًا:

الجبل المرتفع الذي تعرف من خلاله الطريق، فهو كالبرق في لمعانه، واهتداء الناس من خلاله في سيرهم.

الصلة بين العلم والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعلم تبين أن الجبل أعم منه وأشمل؛ إذ إن العلم يعني ما زاد ارتفاعه بحيث يكون دالًّا على الطريق، والجبل يعني: كل ما ارتفع من الأرض، وكان ثابتًا بوتد.

٣ السهل:

السهل لغةً:

هو «كل شيء يميل إلى اللين وقلة الخشونة»[٣].

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.
(٣) المصدر السابق١/ ٤٥٨.

السهل اصطلاحًا:

«أرض منبسطة لا تبلغ الهضبة»[١].

الصلة بين السهل والجبل:

السهل هو الأرض المنبسطة التي هي غير مرتفعة أبدًا، وبالتالي فإنه لا يحتاج إلى وتد وما شابه، كما أن مناخه وطبيعة منافعه تختلف عمّا يرتفع على الأرض، وأما الجبل فإنه يحتاج إلى وتدٍ إضافة إلى خاصية منافعه، إضافة إلى أن كليهما دالٌّ على قدرة الله تعالى وعظمته.

٤ الرّابية:

الرّابية لغةً:

وهي «ما ارتفع من الأرض»[٢].

الرّابية اصطلاحًا:

كل شيء ارتفع عن الأرض، سواء أكان جبلًا، أم غير ذلك.

الصلة بين الرابية والجبل:

الرابية أعمّ وأشمل من الجبل، من كون الرابية تعني كل ما ارتفع عن الأرض، وهي بذلك تعني الجبل والهضبة والتل وغير ذلك؛ غير أن الجبل أوضح دلالة، وأعظم اعتبارًا في المدلول الدعوي.

٥ الوادي:

الوادي لغةً:

هو ما كان في المنخفض من الأرض، وجمعه أودية[٣].

الوادي اصطلاحًا:

هو سيل الماء الواقع في منخفض بين جبلين.

الصلة بين الوادي والجبل:

الوادي منخفض عن سطح الأرض، والجبل مرتفع مثبّت بوتد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٢٨٦.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥٢١.

الجبال والأرض

اقترن ذكر الجبال بالأرض في القرآن؛ وذلك لعلاقتهما اللازمة؛ حيث حاجة الأرض إلى التثبيت وعدم الاضطراب، وسوف نوضح ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الجبال وخلق الأرض:

هناك مجموعة من الآيات تتحدث عن عملية تكوين الجبال وأصل نشأتها.

يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾[النحل: ١٥ - ١٦].

قال الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان، وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض؛ ولعل خلقها كان متأخرًا عن خلق الأرض؛ إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم، ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السّبل والعلامات فتأخّر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض، كما أن الأمطار تهاطلت فكوّنت الأنهار، فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بيّنًا، وإطلاقه على وضع السّبل والعلامات تغليب، ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء، ورواسي جمع راسٍ، وهو الثبات والتمكن في المكان.

قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

ويطلق على الجبل رأس بمنزلة الوصف الغالب.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

تعليلٌ لإلقاء الرواسي في الأرض، والميد: الاضطراب، وضمير تميد عائد إلى الأرض بقرينة قرنه بقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾؛ لأن الميد إذا عدي بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشيء المستقر في

الظرف المائد، والاضطراب يعطّل مصالح الناس، ويلحق بهم آلامًا.

ولما كان المقام مقام امتنان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه.

ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلًا لكرويتها، بحيث لا تكون بحدٍّ من الملاسة يخفّف حركتها في الفضاء تخفيفًا يوجب شدة اضطرابها»[1].

ثانيًا: الجبال والتوازن:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

قال ابن كثير: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون؛ ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان، كما يتصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله»[2].

والنظرة العلمية: في طيات هذه الآية الكريمة ثلاث حقائق أيّدها العلم بدلائل قوية، وهي:

أولًا: أن الله مدّ الأرض، وجعل فيها رواسي، ومدّ الأرض، أي: بسطها أينما سار الإنسان عليها.

ثانيًا: أنه سبحانه جعل في الأرض رواسي، أي: جبالًا لتحفظ التوازن اللازم للكرة الأرضية التي تتكون من منخفضات عميقة في البحار والمحيطات ومرتفعات شامخة من الجبال والهضاب، وأنه لابد في هذه الحالة من استقرار للأرض، واتزان لانتظام حركتها مع ثباتها.

ثالثًا: أنه سبحانه جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، أي: جعل في الأشجار التي تحمل الثمار نوعي الذكر والأنثى حتى يتم تلقيح الأعضاء الأنثية بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالأعضاء الذكرية، وبذلك تتوالد الأنواع وتتكاثر[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧].

قال ابن كثير: «﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي:

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣١.

(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٤٥ - ١٤٦.

جعلها لها أوتادًا أرساها بها، وثبّتها وقرّرها حتّى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها»[1].

والنظرة العلمية: تمكّن الإنسان بوسائله العلمية المختلفة أن يثبت أن الجزء الصلب من القشرة الأرضية يبلغ سمكه (٦٠) كيلومترًا، وأن بعض هذه القشرة يرتفع مكوّنًا الجبال وينخفض بعضها؛ ليكون قيعان البحار والمحيطات، وأن وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية موزعة بدقة وحكمة يساعد على التوازن بين المرتفعات والمنخفضات، بحيث لا تميد الأرض ولا تضطرب، فكأن هذه الجبال تعمل عمل الأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة واستقرارها.

وهناك حقيقة علمية أخرى وصل إليها البحث العلمي في توزيع الجبال واليابس والماء على سطح الأرض بنسب أحجامها الحالية، علاوة على التوازن بحيث لا تميد الأرض ولا تحيد عن موضعها، وهي أنه لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكوّنة من الماء بنسبة أكبر لبلغ وزنها أقل مما هي عليه الآن؛ ولما تمكّنت من حفظ نسبة بعدها عن الشمس، بل لانجذبت إليها واحترقت، ولو كان أكثرها مكوّنًا من اليابس لزاد وزنها عما هي عليه الآن؛ ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة؛ لأنها في هذه الحالة تتجمد من شدة البرودة[2].

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٠٢.

ثالثًا: الجبال والأنهار:

فضلًا عما تحتويه المناطق الجبلية من قدر كبير من التنوع الإحيائي العالمي، فإنها تقوم بوظيفة أخرى هامة جدًّا؛ إذ تعتبر مستجمعات لمعظم الموارد المائية في العالم، فهناك مجموعة من الآيات تصف الارتباط والعلاقة بين الجبال والماء والأنهار.

قال الرازي: من الاستدلال بأحوال الجبال أنّ بسببها تتولّد الأنهار على وجه الأرض؛ وذلك أنّ الحجر جسمٌ صلبٌ فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك، فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياهٌ عظيمةٌ، ثمّ إنّها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولّد الأنهار هو من هذا الوجه؛ ولهذا السّبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر اللّه الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، أي: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ

(٢) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص٦٤، ٦٥.

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧][1].

وقال أبو حيان: «ومن جهة تولّد الأنهار منها، قيل: وذلك لأنّ الجبل جسمٌ صلبٌ، ويتصاعد بخاره من قعر الأرض إليه ويحتبس هناك، فلا يزال يتكامل فيه فيحصل بسببه مياهٌ كثيرةٌ، فلقوّتها تشقّ وتخرج وتسيل على وجه الأرض، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذكر الله تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

فقال المفسّرون: الأنهار المياه الجارية في الأرض، وقال الكرمانيّ: مسيل الماء»[2].

وقال النيسابوري: «من الدلائل الدالة على وجود الصانع ووحدانيته جريان الأنهار العظيمة على وجه الأرض الكائنة فيها من احتباس الأبخرة، وأكثر ذلك إنما يتكوّن في الجبال؛ فلذا قرن الجبال بالأنهار في القرآن كثيرًا؛ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٩، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٤٦.

(٣) غرائب القرآن ٤/ ١٣٨.

رابعًا: ألوان الجبال:

ورد اختلاف الألوان الجبال في آية كريمة تحدثت عن ألوان صخور الجبال، وأثر الماء في تعدد هذه الألوان وعلاقته به، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وقد يعجب الإنسان من علاقة إنزال الماء من السماء باختلاف ألوان الجبال، ففي بحثٍ مطوّلٍ ومعقّدٍ جدًّا ملخّصه أنّ الماء هذا العنصر الحيويّ، والذي يعدّ من أعلى العناصر المذيبة والفعّالة، تبيّن أنه هو العامل الحاسم في تلوين الجبال، التي تأخذ ألوانها من ألوان معادنها التي تشترك في بنيتها، والمعادن تتلوّن بقدر أكسدتها، حيث إنّ الماء له علاقةٌ بهذه الأكسدة؛ لذلك تجد أنّ أحد عوامل تلوينها واختلاف ألوانها من جبالٍ كالغرابيب السود، وجبالٍ جددٍ بيضٍ، وحمرٍ مختلفٍ ألوانها يعود إلى الماء؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فكل ما تقدّم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم العلميّ من أجل أن نعلم علم اليقين أنّ الذي أنزل هذا القرآن هو الذي خلق الأكوان، وأنّ هذا التوافق بين معطيات العلم ومعطيات الوحي هو منطقيٌّ إلى درجةٍ قطعيةٍ؛ لأنّ الوحي كلام الله؛ ولأنّ الكون خلق الله، واتّحاد المصدر يعني اتّحاد الفروع، فلابدّ من تطابق العلم الحقيقيّ مع النقل الصحيح...، فلابد أن نعلم علم اليقين أنّ الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. وهنا عطفٌ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضًا من بيضٍ وحمرٍ، وفي بعضها طرائق، وهي الجدد، جمع جدّة، مختلفة الألوان أيضًا، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: الجدد: الطرائق[1]. والغرابيب: الجبال الطوال السود.

وقال ابن جريرٍ: «والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب، إذا وصفوه بشدّة السّواد، وجعل السّواد ها هنا صفةً للغرابيب»[2].

فما أعظم كمال وقدرة المولى سبحانه وتعالى في وصف بديع خلقه، فقد خلق الله الجبال مختلفة الألوان من بيضٍ وحمرٍ وأسود غرابيب أي: شديد السواد، فوضع لنا القرآن بإعجازه العلمي سرًّا من أسرار علوم الجيولوجيا، وأطلعنا على أنواع الجبال، ومهّد لنا مجال البحث في هذا العلم، حيث يقوم علماء الجيولوجيا بتصنيف الجبال تبعًا للصخور التي تغلب على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١. جبال رسوبية طبقية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فـ«الجدد البيض» هي صفة للجبال الرسوبية التي تكونت بفعل ترسيب الطبقات.

فمن المعاني اللفظية لكلمة ﴿جُدَدٌ﴾ الوارد ذكرها في الآية الكريمة معنى الشيء المتجدد، ويستدل العلماء على هذا الرأي بأن جبال الجليد الهائلة المتجمدة منذ ملايين السنين تشكّل ٩٠٪ من الماء المخزون في كوكب الأرض.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨١.

(٢) جامع البيان ١٩/ ٣٦٣.

وأيضًا «الجدد» بمعنى الغنى، ويفسّر العلماء هذا بأن جبال المعادن النفيسة والرخام والأحجار الكريمة ذات الألوان المختلفة تعدّ من مصادر الثروة للبشر.

ويقول علماء الجيولوجيا: إنها تتجدد ببطء مع مرور الزمن على الرغم مما يؤخذ منها عن طريق العوامل الطبيعية، أو ما تأخذه أيدي الإنسان، فكلما استنزفت قمم هذه الجبال ترتفع جذورها من الأعماق فتعوّض، أي: تجدد ما استنزف منها، وهي (بيض)؛ لأن اللون الغالب على هذه الجبال هو الأبيض حيث أن صخورها تنتمي إلى عائلة الصخور الجرانيتية التي تتكون أساسًا من معادن المرو الأبيض اللون، ومعادن أخرى مختلفة في ألوانها ودرجاتها مثل الفلسبار البوتاسي المقارب إلى اللون الأحمر، والبايوتايت الذي يتراوح بين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة والعسلي؛ لذا نجد اختلاف الألوان ودرجاتها في الجبل.

٢. جبال قاعدية متبلورة.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

ويفسّر العلماء اللون الأحمر لهذه الجبال التي ورد ذكرها في الآية الكريمة نتيجة لشيوع عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسبة وجود هذه المعادن؛ لذلك يظهر اللون الأحمر بدرجات متفاوتة.

٣. جبال بركانية نارية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

و«الغرابيب السود» هي الجبال النارية البركانية غير المتبلورة، حيث يشيع اللون الأسود عليها؛ لأن البازلت وهو صخر ناري أسود اللون يغلب على تكوين هذه الجبال ويتكون بفعل تجمد الأفا.

وهي المادة المنصهرة التي تخرج من فواهات البراكين، ربط الله سبحانه وتعالى بين اختلاف ألوان الثمار واختلاف ألوان الجبال في الآية الكريمة، ورغم غرابة هذا الارتباط إلا أنه يبدو طبيعيًّا من جانب الدراسة العلمية للألوان، فسبحان الله الذي أبدع كل شيء بكلمات موجزة معبّرة عن المعجزات خلق الله، وصف الله الجبال بمعنى آخر هو: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧][1].

وقال تعالى أيضًا عن نزول الأمطار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ١٧٤.

﴿يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

قال أبو السعود: «﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، فإن كلّ ما علاك سماءٌ ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ أي: من قطعٍ عظامٍ تشبه الجبال في العظم كائنة فيها، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ مفعول ينزل، على أنّ ﴿مِنۢ﴾ تبعيضيّةٌ، والأوليان لابتداء الغاية على أنّ الثّانية بدل اشتمالٍ من الأولى بإعادة الجار أن ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها بعض برد»[(١)].

وقال الشوكاني والبيضاوي بمثل ما قال أبو السعود إلا أنهما اعتبرا ﴿مِنۢ﴾ الثالثة بيانية، فقال: ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف؛ أي: ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها من برد[(٢)].

فقوله تعالى: ﴿خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النور: ٤٣].

فيه سر لا يعرفه إلا من تمكّن من مراقبة مراحل تكوين البرد داخل السحاب، ومن الذي أنبأه بأن للبرد برقًا، وأن البرد هو السبب في حصوله، وأنه يكون أشد أنواع البرق ضوءًا؟ إن ذلك لا يعرفه إلا من درس الشحنات الكهربائية داخل السحاب واختلاف توزيعها ودور البرد في ذلك؛ ولشدة خفاء هذا الأمر فقد نسب المفسرون البرق إلى السحاب، وإن كان السحاب يشتمل على البرد في كلام المفسرين، ولم نجد من نسب هذا البرق إلى البرد مع أنه المعنى الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣][(٣)].

(١) إرشاد العقل السليم، ٦/ ١٨٤.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١١٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٩.
(٣) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٣٠٢- ٣٠٣، ٣١٥.

الجبال والإنسان

أخبر القرآن عن اتخاذ الإنسان الجبال كحصون وبيوت للسكن، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: الجبال والوزر:

الوزر في اللّغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصنٍ أو جبلٍ أو غيرهما.

ومنه قول طرفة[1]:

ولقد تعلم بكرٌ أنّنا
فاضلو الرّأي وفي الرّوع وزر

وقول حسان بن ثابت[2]:

الناس ألبٌ علينا ثم ليس لنا
إلا السيوف وأطراف القنا وزر

وقال الطاهر ابن عاشور: «الوزر: المكان الّذي يلجأ إليه للتّوقّي من إصابة مكروهٍ مثل الجبال والحصون»[3].

ومنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠ - ١١].

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرّ وتمنّيه، و﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ ولا حصن، استعير من الجبل، فـ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النّار. فـ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا، ليس هنالك يا ابن آدم فرار ولا جبل ولا حصن، ولا مكان يلجأ إليه ويفر إليه، ولا جبل ولا معقل، ولا ملجأ من اللّه.

وقال ابن مسعودٍ والضحاك: لا حصن، وقال الحسن: لا جبل، وقال ابن عباس: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا حصن ولا ملجأ.

وقال عكرمة: لا منعة، وقال ابن جبيرٍ: لا محيص ولا منعة، وقال مطرف بن الشخير: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا جبل، إن الناس إذا فروا قالوا: عليك بالوزر، وقال السّدّيّ: كانوا في الدّنيا إذا فزعوا تحصّنوا في الجبال، فقال اللّه لهم: لا وزر يعصمكم يومئذٍ منّي، واشتقاقه من الوزر وهو الثقل، أي: ملجأٌ للخائف، وكذلك هو قول أبي قلابة ومجاهد وقتادة[4].

قال القرطبي: «المعنى في ذلك كلّه واحدٌ»[5].

وأصل هذا أنهم كانوا إذا ضيق عليهم في الحروب والهزائم الشداد لجؤوا إلى الجبال والمعاقل، فأعلموا أنه لا ملجأ من عذاب الله في القيامة إلى جبل ولا إلى غيره[6].

(١) انظر: ديون طرفة بن العبد ص٣٠.
(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص٩٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٦.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٩/ ٩٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب

وقال عبد القادر العاني: «كانوا إذا فزعوا من شيء يلجأون إلى الجبال؛ ولذلك قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٤٣].

فتقدّم الله تعالى لهؤلاء بما يقطع أملهم بأن لا شيء هناك يعصمهم من عذاب الله إلا هو؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

قال محمد ثناء الله: «﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ الوزر في الأصل الجبل، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ يعنى: جبل هناك يلتجئ إليه، والمراد ها هنا الثّقل على سبيل الاستعارة»[(٢)].

ثانيًا: الجبال بيوت وسكن:

تحدثت عدة آيات عن اتخاذ الجبال بيوتًا وسكنًا، فهل سكنى الجبال أمر محمود؟ أو مرغوب فيه ابتداء؟ أم يلجأ إليه عند الحاجة فقط؟ سنقف عند هذه الآيات أولًا، ثم نذكر جوابًا جامعًا من خلالها:

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

تفسير علماء الدين: ألهم ربك النحل أسباب حياتها ووسائل معيشتها بأن تتخذ من الجبال بيوتًا في كهوفها، وتتخذ من فجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم بيوتًا لها كذلك.

قال البغوي والبيضاوي في تفسير الآية: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾: «أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته»[(٣)] أو جعل في غرائزها ذلك، كما قال السمعاني[(٤)] أي: اتخذي ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ أي: يبنون ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ أي: أوكارًا مع ما فيها من الخلايا[(٥)].

والنظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرّسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات، وقفوا على حقائق عجيبة، وألّفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برّية من النحل تسكن الجبال، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين، أو الخشب

١٢/ ٧٨٦٨.

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ١/ ٢٤٠.

(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ١٠/ ٢٩١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٢٧٦.

يعيش فيها، وهكذا تبيّن الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوي إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[1].

وقال تعالى في معرض الامتنان على بني آدم: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

قال الكفوي: ﴿مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تستكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، من «الكن» وهو السترة[2].

وأخبرنا تعالى أن صالحًا عليه السلام قال لقومه ثمود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وأخبرنا عنهم أيضًا: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

قال ابن كثير: «أي: من غير خوفٍ ولا احتياجٍ إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: (لا تدخلوا بيوت القوم المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم)»[3][4].

وقال أيضًا عنهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٩ - ١٥٠].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ قال ابن عبّاسٍ وغير واحدٍ: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم؛ لتعبدوه، وتوحّدوه، وتسبّحوه بكرة

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.
(٢) الكليات، الكفوي ص١٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ٤/ ١٤٩، رقم ٣٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٢٩٨٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٥.

وأصيلًا»[1].

وأثبت العلم الحديث أن سكان الجبال الذين تختفي أحوالهم دائمًا خلف جمالها الخلّاب، وتبعدهم عن مرمى السمع والبصر عزلتهم وصعوبة الوصول إليهم، ويواجهون تدهورًا مستمرًّا في النظم الإيكولوجية وتزايدًا في مستويات الفقر وتفاقمًا في الأوضاع المزعزعة والصراعات المسلحة.

ويقدّر على وجه العموم أن زهاء ١٠ في المائة من سكان الأرض يقطنون مناطق الجبال، وإن رأى «برونو ميسيرلي» من جامعة «برن» بسويسرا أن المسوحات الجديدة كشفت عن وجود أكثر من ٢٥ في المائة من سكان العالم يقطنون مناطق الجبال أو في محيط قدره (٥٠) كيلو مترًا منها.

ويميل سكان الجبال بسبب وجودهم في مناطق نائية أن يكونوا أفقر من نظرائهم في الأراضي الواطئة، وهو سبب يدفع كثرة من شبيبة هذه المناطق إلى هجرها.

ويقول «لاكاباشيربا» مدير برنامج «كومولانغما» للمحافظة على الطبيعة التابع لمعهد الجبال في منطقة التبت الصينية المتمتعة بالاستقلال الذاتي أنه بمجرد أن يغادر الشباب مناطق الجبال فإنهم «يحلّقون بعيدًا ولا يعودون أبدًا»، وأكد أن مشاركة أهالي الجبال أساسية في تنمية مناطقهم وتطوير أنفسهم، وبدون ذلك سيكون كسر دائرة الفقر مستحيلًا حسب رأيه.

إذن الجواب: الجبال سكن للنحل بوحي من الله، وحصن عند الحاجة، ولا يلجأ إليها للمعيشة العادية؛ نظرًا لصعوبة الحياة بها، والله أعلم.

ثالثًا: الخشوع، والإشفاق عن حمل الأمانة، والتأويب، والذكر:

بالرغم من ضخامة الجبال وعظمتها إلا أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان، وهي لغة تسبيح الله عز وجل، ولكن لا نعلمها ولا نعرفها، إنما يعرفها خالقها -جل شأنه-.

فهناك مجموعة من الآيات الكريمة تشير إلى إحساس الجبال الإيماني، وخضوع الجبال وتسبيحها للخالق -تبارك وتعالى-، فذكر الله عز وجل في مواضع عديدة من كتابه العزيز أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان في معرفة حقوق المولى عز وجل، ومن هذه المواضيع:

الخشوع:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تسابق الإنسان في معرفة الله والخوف منه، فإنها تتصدّع من خشية الله.

قال ابن كثير: «يقول تعالى معظّمًا لأمر القرآن، ومبيّنًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبّر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]»[(١)].

الإشفاق من حمل الأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تشفق من حمل الأمانة التي هي بالمعنى العام.

قال السعدي: «يعظّم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلّفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدّيتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ أي: خوفًا أن لا يقمن بما حمّلن، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل»[(٢)].

التأويب والذكر:

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

بل ذكر المولى عز وجل أن الجبال في حالة من التسبيح الدائم! فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٧٣.

قال سيد قطب: «لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ؛ إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسّوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال! ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة، وراء تميّز الأجناس والأشكال والصفات والسمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعًا، وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن ذلك الحاجز تنزاح، وتتكشف الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتعزلهم في مألوف الحياة! وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، وسخّر الجبال معه يسبّحن بالعشي والإشراق، وحشر عليه الطير ترجّع مع ترانيمه تسبيحًا لله، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان مع النبوة والاستخلاص»[1].

الجبال والساعة

تحدث القرآن عن أحوال الجبال في أحداث القيامة، وسوف نوضّحها فيما يأتي:

أولًا: دكّ الجبال:

اعلم أنّه جلّ وعلا بيّن الأحوال الّتي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آياتٍ من كتابه، فبيّن أنّه ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكّها دكًّا، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

قال الطبري: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: فزلزلتا زلزلةً واحدةً»[2].

وقال البغوي: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ كسرتا ﴿دَكَّةً﴾ كسرةً ﴿وَاحِدَةً﴾ فصارتا هباءً منبثًّا»[3].

وقال ابن كثير: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

أي: فمدّت مدّا لأديم العكاظي، وتبدّلت الأرض غير الأرض»[4].

ثانيًا: الجبال كثيب مهيل، كالعهن:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

قال السعدي: «﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٧.

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٢٤.

(٣) معالم التنزيل ٥/ ١٤٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢١.

﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصّم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور»[1].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ يقول: وتكون الجبال كالصوف»[2].

وقال البغوي: «﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصّوف المصبوغ»[3].

ولا يقال: عهنٌ إلّا للمصبوغ.

وقال مقاتلٌ: كالصّوف المنفوش.

وقال الحسن: كالصّوف الأحمر وهو أضعف الصّوف، وأوّل ما تتغيّر الجبال تصير رملًا مهيلًا ثمّ عهنًا منفوشًا ثمّ تصير هباءً منثورًا[4].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ يقول تعالى ذكره: ويوم تكون الجبال كالصّوف المنفوش؛ والعهن: هو الألوان من الصّوف»[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٣.
(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٥٦.
(٣) معالم التنزيل، ٨/ ٢٢١.
(٤) انظر: المصدر السابق ٥/ ١٥٢.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٤.

ثالثًا: نسف الجبال:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيّرها تسييرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ واديًا، ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف»[6].

وقال الشنقيطي: «جرت العادة في القرآن: أن الله إذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: يسألونك قال له: قل بغير فاء، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣١٦.

﴿وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية (طه) هذه فقال فيها: ﴿فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ بالفاء.

وقد أجاب القرطبي عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة، فقل، جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن (قل) بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت، سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه انتهى منه، وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى»[1].

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧].

الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنه راجع إلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر، ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقوله: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

فالضمير فيهما راجع إلى الأرض، ولم يجر لها ذكر.

والثاني: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها؛ لأنها مفهومة من ذكر الجبال، والمعنى: فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعًا صفصفًا، والقاع: المستوي من الأرض، وقيل: مستنقع الماء، والصفصف: المستوي الأملس الذي لا نبات فيه، ولا بناء، فإنه على صف واحد في استوائه، وأنشد لذلك سيبويه قول الأعشى[2]:

وكم دون بيتك من صفصف
ودكداك رمل وأعقادها

وقوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

أي: لا اعوجاج فيها ولا أمت، والأمت: النتوء اليسير، أي: ليس فيها اعوجاج، ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية،

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: ديوان الأعشى ص١٢٦.

ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد[1]:

فاجرمزت ثم سارت وهي لاهية
في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر[2]:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة
في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين: قيل الليل، وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع، والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج، والعوج فقالوا، العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه، ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا يحيدون عنه ولا يميلون يمينًا ولا شمالًا، وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعًا، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ

(١) انظر: ديوان لبيد بن ربيعة ص٤٥.
(٢) البيت مذكور في: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١١٢، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٤٧ دون تسمية قائله.

﴿ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

والإهطاع: الإسراع، وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ - ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

إلى غير ذلك من الآيات[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ [المرسلات: ١٠].

قال القرطبي: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أي: ذهب بها كلها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة، وكان ابن عباس والكلبي يقول: سويت بالأرض، والعرب تقول: فرس نسوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه، قال بشر[2]:

نسوف للحزام بمرفقيها

ونسفت الناقة الكلأ: إذا رعته، وقال المبرد: نسفت قلعت من موضعها، يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض أنسفت رجلاه، وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها للرياح، ومنه نسف الطعام؛ لأنه يحرّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن[3].

رابعًا: تسيير الجبال:

ثمّ بيّن أنّه يسيّرها في الهواء بين السّماء والأرض؛ وذلك في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧ - ٨٨].

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

ثمّ بيّن أنّه يفتّتها ويدقّها كقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة: ٥].

أي: فتّتت حتّى صارت كالبسيسة، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٤].

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٦- ١٠٠.

(٢) انظر: ديوان بشر ص٧٤.
وتمام البيت:
نسوفٌ للحزام بمرفقيها
يسدّ خواء طبيبها الغبار

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥٧.

ثم بيّن أنه يصيّرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش؛ وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ - ٩].

في المعارج والقارعة، والعهن: الصوف المصبوغ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[(١)]:

كأن فتات العهن في كل منزل
نزلن به حب الفنا لم يحطم

ثم بيّن أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

ثم بيّن أنها تصير سرابًا؛ وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقد بيّن في موضع آخر: أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وبيّن أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥][(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ عن الأرض فنبسّها بسًّا، ونجعلها هباء منبثًا ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل التأويل»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨].

أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠]. قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

قال القنوجي: «﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها

(١) انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى ص٦٦.
(٢) انظر: أضواء البيان ٤/ ٩٦- ١٠٠.
(٣) جامع البيان ١٥/ ٢٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢١٧.

كسير السحاب، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتّتة كالرمل، ثم تصير كالعهن أي الصوف المندوف، ثم تطيّرها الرياح فتكون هباء منبثًّا، كما دل عليه كلامه في سورة النمل، قيل: ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدلالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود، والحكمة في مور السماء، وسير الجبال الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف»[1].

وقال القاسمي: «﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠] أي: تسير عن وجه الأرض فتصير هباء منثورًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يقول: ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيّرت هباء منبثًّا، لعين الناظر، كالسراب الذي يظنّ من يراه من بعد ماء، وهو في الحقيقة هباء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يقول: وإذا الجبال سيّرها الله، فكانت سرابًا وهباءً منبثًّا»[4].

وقال القاسمي: «﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: رفعت عن وجه الأرض ونسفت، من أثر الرجفة والزلزال الذي قطّع أوصالها»[5].

خامسًا: الجبال هباء منبث:

قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ يقول تعالى ذكره: فتّتت الجبال فتًّا، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

والبسيسة عند العرب: الدقيق والسويق تلتّ وتتخذ زادًا»[6].

وقال القاسمي: «قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي: متفرقًا، قال قتادة: الهباء ما تذروه الريح من حطام الشجر، وقال غيره: هو ما يرى من الكوة كهيئة الغبار»[7].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، السماء، البحر، الماء

(١) فتح البيان ١٣/ ٢٢٠.
(٢) محاسن التأويل ٩/ ٥٠.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٢٠.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ١٣٣.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ٤١٢.
(٦) جامع البيان ٢٢/ ٢٨٢.
(٧) محاسن التأويل ٩/ ١١٩.